

السياسة الصليبية البابوية - الإسبانية تجاه الأندلس بعد سقوط القسطنطينية
(1453-1492م/857-897هـ)

Crusader Papal - Spanish Policy toward Al-Andalus after fall of
Constantinople (1453-1492 A. D.\857-897 A. H.)

عامر قبيج

Amer Qobbaj

قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين

بريد الكتروني: amer.qobbaj@najah.edu

تاريخ التسليم: (2014/10/22)، تاريخ القبول: (2015/5/18)

ملخص

أدى سقوط مدينة القسطنطينية بيد العثمانيين سنة 1453م/857هـ إلى انهيار الإمبراطورية البيزنطية التي تُعدّ من أقوى الإمبراطوريات التي نشأت عبر التاريخ؛ بعد أن حكمت أجزاء واسعة من بلاد الشرق الأدنى والشرق الأوروبي لما يزيد عن أحد عشر قرناً، فمهد سقوطها لدخول مناطق ومساحات كبيرة من أراضي الشرق الأوروبي المسيحي في حوزة المسلمين، وإثر ذلك تمكّن العثمانيون من النفاذ إلى قلب أوروبا، مما جعل الغرب المسيحي برمته في دائرة التهديد والخطر الإسلامي. واستشعرت البابوية في روما خطورة نتائج سقوط القسطنطينية، كما تبذدت أحلامها ومساعدتها الرامية لمدّ نفوذها وسيطرتها الروحية إلى مختلف أرجاء العالم المسيحي، فبدأت تعدّ العدة لمواجهة الزحف العثماني؛ من خلال إيجاد حلف عسكري ديني مسيحي عربي مضاد، ولمّا فشلت في ذلك، وجدت ضالتها في الممالك المسيحية الإسبانية التي كانت حينذاك تواصل سياسة إعادة الاسترداد الصليبية؛ بهدف القضاء على الوجود الإسلامي في الأندلس، فسخرت البابوية كلّ إمكاناتها لدعم الإسبان مادياً وبشرياً ودينياً ومعنوياً؛ من أجل الانتصار على الأندلسيين في الغرب، في محاولة لتعويض الخسارة التي تكبدها العالم المسيحي على أيدي العثمانيين في الشرق، وهو ما تمّ إنجازه سنة 1492م/897هـ، عندما أجهز الإسبان المدعومون بابوياً على مملكة غرناطة؛ آخر الممالك الإسلامية في بلاد الأندلس.

الكلمات المفتاحية: القسطنطينية، غرناطة.

Abstract

The fall of Constantinople by the Ottomans in 1453 A. D., led to the collapse of Byzantine Empire, which was considered one of the most powerful empires throughout history, after it had ruled vast parts of the Near East and Middle European countries for more than eleven centuries. Its collapse paved the way before Muslims to enter and possess large areas of lands and properties of the Christian Eastern Europe, and enabled the Ottomans to reach the heart of Europe, which made the entire Western Europe under the Islamic threat. The papacy was of the most European parties aware of that imminent danger, so it well prepared to confront the Islamic threat through forming anti-military religious Christian western alliance in parallel with recruiting all the papacy and European forces to support the Christian kingdoms in Spain financially, humanly, religiously and morally, so as to eliminate the Islamic presence in Al-Andalus homeland, subsequently to compensate the losses incurred by the Christians in the East, and this was achieved in 1492 A. D., when the Spaniards, with the help of the papacy, ended the rule of Granada, the last Islamic kingdom in Al-Andalus.

Keywords: Constantinople, Granada.

مقدمة

جاء هذا البحث الموسوم بـ السياسة الصليبية البابوية - الإسبانية تجاه الأندلس بعد سقوط القسطنطينية (1453-1492م/857-897هـ)، ليعالج مرحلة دقيقة من أهم مراحل العلاقات الدولية في نهايات العصور الوسطى، ما بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، وذلك عندما وُضعت مدينتنا القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية وغرناطة عاصمة آخر الممالك الإسلامية في بلاد الأندلس على كفتي ميزان الصراع الإسلامي المسيحي، فشكّلت نتائجه أحد أهم معالم وأسباب بزوغ فجر التاريخ الحديث.

ويُقصد بالأندلس في هذا البحث، ما تبقى من مملكة غرناطة (1237-1492م/635-897هـ)، بعد أن سقطت العديد من مدنها بيد الإسبان، وانحسر سلطانها في الركن الجنوبي من شبه الجزيرة الإيبيرية، إلى الجنوب من نهر الوادي الكبير.

وعلى الرغم من العلاقة المباشرة التي ارتبطت بموجبها مصير الوجود الإسلامي في بلاد الأندلس مع ما آلت إليه أوضاع الشرق المسيحي بعد سقوط القسطنطينية، إلا أن الدراسات

الحديثة لم تف هذا الموضوع حقه، واكتفت بالإشارة إليه ضمن حديثها العام عن مجريات الصراع الإسلامي المسيحي في الأندلس خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي/التاسع الهجري.

ولم تركز تلك الدراسات على دور المؤسسة البابوية في إذكاء نار الصراع الصليبي ضد الإسلام والمسلمين، وتأثير ذلك على مصير الحكم الإسلامي في الأندلس، وما تبعه من فتح الأبواب على مصاريعها للبدء بعمليات تطهير عرقية منظمة ضد الأندلسيين على يد محاكم التحقيق الإسبانية، بإدارة مباشرة من المؤسستين السياسية والكنسية الإسبانية.

وجاء هذا البحث ليشير إلى أهمية الوحدة الداخلية في تحقيق آمال الشعوب؛ فلم يكن للممالك الإسبانية أن تنتصر على مسلمي الأندلس لولا الوحدة التي تمت بين مملكتي قشتالة وأراغون سنة 1479م، وبالمقابل يشير البحث إلى الآثار السلبية التي تترتب على حالة الفرقة والانقسام والتنافس على الحكم لدى مسلمي الأندلس، في وقت كان فيه الإسبان يترصبون بهم الدوائر، وبخاصة بعد أن أصبحت ردة الفعل البابوية والغربية على سقوط القسطنطينة تشكل رافعة لتبرير القضاء على الإسلام والمسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية.

فمنذ بزوغ فجر التاريخ الإسلامي ظل هاجس فتح مدينة القسطنطينية والسيطرة على أملاك الإمبراطورية البيزنطية يمثل هدفاً مركزياً للمسلمين طوال مسيرة الصراع الإسلامي البيزنطي الذي استمر ما يقرب من تسعة قرون، انطلاقاً من الطبيعة الحضارية للرسالة الإسلامية، والقاضية بنشر مثل السلام والعدل التي جاء بها الإسلام بين البشر.

إلا أن تبليغ هذه الرسالة ما لبث أن واجه عقبة بيزنطية كأداء، عندما حاول المسلمون التمدد شمالاً، فكانت أولى الضربات الاستباقية الإسلامية ضد حلفاء بيزنطة في شمال غرب الجزيرة العربية سنة 626م/4هـ فيما عرف بغزوة دومة الجندل، وما هي إلا سنوات معدودة حتى شكلت نتائج معركة اليرموك سنة 637م/15هـ فاتحة الفتوح الإسلامية الكبرى، إذ تمكن المسلمون من انتزاع الشام من أيدي البيزنطيين، ثم تبعها مصر سنة 641م/21هـ.

وبالتزامن مع الإنجازات التي رافقت مسيرة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب على حساب النفوذ البيزنطي، سعى المسلمون للسيطرة على الحوض الشرقي من البحر المتوسط من خلال تكثيف الحملات ضد سواحله وجزره، وبالمقابل سعت بيزنطة على الدوام لاسترداد أملاكها في مصر والشام، فكان النصر الإسلامي في معركة ذات الصواري سنة 655م/35هـ، إلا أن الحلم الإسلامي الأكبر الذي لطالما راود خيال المسلمين تمثل بضرورة فتح القسطنطينية والقضاء على الإمبراطورية البيزنطية، وانسجاماً مع هذا التوجه نشط الأمويون في توجيه الحملات العسكرية المتتابعة ضدها، وبخاصة خلال عهد كل من الخليفة معاوية بن أبي سفيان (661-680م/41-60هـ) وسليمان بن عبد الملك (715-718م/96-99هـ)، ولم يأت العصر الأموي على نهايته سنة 132هـ/751م إلا وكانت الإمبراطورية الإسلامية قد اشتملت على مساحات واسعة من أراضي الإمبراطورية البيزنطية، فضلاً عن أراضي شبه الجزيرة الإيبيرية التي باتت تعرف ببلاد الأندلس ابتداءً من سنة 711م/92هـ.

وبدورهم سار العباسيون وبخاصة خلال العصر العباسي الأول (751-847م/132-232هـ) على الخط نفسه الذي انتهجه أسلافهم تجاه الإمبراطورية البيزنطية، وأدت نتائج النصر السلجوقي على البيزنطيين في معركة ملاذكرد سنة 1071م/463هـ وقيام دولة سلاجقة الروم (1077-1307م/469-706هـ) إلى حرمان مدينة القسطنطينية من عمقها الجغرافي والاستراتيجي الشرقي، مما أسهم في إضعاف قدراتها الدفاعية، ولعل من أهم الأسباب التي أدت إلى إضعاف الموقف الأوروبي برمته خلال الفترات اللاحقة، فشل الحروب الصليبية (1095-1291م/488-690هـ) ضد بلاد الشرق الأدنى الإسلامي، بالإضافة إلى عوامل أوروبية داخلية أخرى، مما سهل على العثمانيين السيطرة على مدينة القسطنطينية سنة 1453م/857هـ دون أن يتمكن الأوروبيون من إنقاذها.

وأجج سقوط القسطنطينية النزعة الصليبية الأوروبية ضد المسلمين من جديد، فحاولت البابوية تشكيل حلف صليبي أوروبي بهدف مواجهة تحديات المرحلة التي أعقبت سقوط المدينة، ولكن المحاولات البابوية لم تجد لها صدقاً حقيقياً لدى المؤسسات السياسية الحاكمة في أوروبا، إلا من قبل بعضهم، فوجدت البابوية ضالتها في الممالك الإسبانية، وعملت على دعمها الوسائل كلها؛ بهدف القضاء على الوجود الإسلامي في الأندلس، وتزامن ذلك مع حالة التفكك التي كانت عليها بلاد المغرب الإسلامي، التي لطالما شكّلت سنداً وعوناً لمسلمي الأندلس، فضلاً عن حالة النزاع والفرقة التي عمّت تفاصيل الحياة الداخلية الأندلسية خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي/التاسع الهجري.

1. سقوط القسطنطينية بيد العثمانيين سنة 1453م/857هـ

استمرت المحاولات الإسلامية لفتح مدينة القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، ولعل من أكثر الدول الإسلامية التي أولت هذا الموضوع اهتماماً كبيراً الدولة العثمانية، لما كانت تشكل الإمبراطورية البيزنطية بشكل عام ومدينة القسطنطينية بوجه خاص من خطر على أمنها.

وعندما اعتلى السلطان محمد الثاني (1451-1481م/855-886هـ)⁽¹⁾ العرش، كان الأوروبيون يعتقدون أنه لن يشكل خطراً على الممتلكات المسيحية في أوروبا بشكل عام والبلقان وبحر إيجه بشكل خاص، وهذا ما أكده السلطان بنفسه للسفراء والمبعوثين الذين وفدوا إلى بلاطه بعيد التولية⁽²⁾، ولكنّه في حقيقة الأمر كان يضمّر خلاف ما اعتقده الأوروبيون؛ فما أن اعتلى العرش حتى عقد العزم على الاستيلاء على مدينة القسطنطينية، وبدأ بالتحضير لهذا الأمر.

(1) للاطلاع على سيرة السلطان محمد الثاني وإنجازاته وفتوحاته، انظر: المحامي، محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق د. إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت، 1981م، ص160-178.

(2) Norwich, John Julius: A Short history of Byzantium, Vintage, New york, 1997, p373.

فعلى الصعيد السياسي، جدّد السلطان معاهدات واتفاقيات الهدنة مع العديد من الأطراف والقوى الإقليمية، كالبندقية، وجنوة، وصربيا، ومنظمة فرسان القديس يوحنا⁽¹⁾ في جزيرة رودس، بهدف عزل بيزنطة سياسياً وعسكرياً عن محيطها⁽²⁾.

أما أهم الإجراءات العسكرية التي قام بها محمد الثاني فتمثلت بحشد الجيوش والأسلحة والمواد التموينية، وإكمال بناء المنشآت التي كان بدأها السلطان بايزيد الأول (1389-1403م/791-805هـ)⁽³⁾ على مقربة من العاصمة البيزنطية، وكان بايزيد قد شيّد قلعة الأناضول Anadolu Hisari على الجانب الآسيوي من مضيق البسفور، وبدوره شيّد محمد الثاني على الجانب الأوروبي منه قلعة أخرى سماها قلعة روملي Rumeli Hisari، وتبعد القلعة الجديدة ما يقرب من أربعة أميال عن أسوار مدينة القسطنطينية، ممّا أدى إلى إحكام السيطرة العثمانية على ضفتي البسفور، ثم بدأ العثمانيون بمحاصرة المدينة نفسها في السادس من نيسان 1453م/السابع والعشرين من ربيع الأول 857هـ⁽⁴⁾.

وبلغ عدد القوات الإسلامية المحاصرة لمدينة القسطنطينية ثمانين ألف مقاتل⁽⁵⁾، وقيل بلغ مائتين وخمسين ألفاً، بالإضافة إلى مائة وثمانين سفينة⁽⁶⁾، أما المدينة نفسها فبلغ عدد مدافعيها سبعة آلاف، وعلى رأسهم امبراطورها قسطنطين الحادي عشر Constantine VI⁽⁷⁾، الذي استنجد بملوك وأمم أوروبا، فلم يستجب لصريخه إلا القليل، على رأسهم أهل مدينة جنوة الإيطالية، حيث أرسلوا له عمارة بحرية بقيادة النبيل والبحار الجنوبي جيوفاني جستنياني

(1) منظمة فرسان القديس يوحنا: أو فرسان الأسيطارية، منظمة دينية عسكرية متعصبة، أسسها الإيطاليون في مدينة القدس سنة 1070م/462هـ، وشاركت في الحروب الصليبية، ثم استقرت في جزيرتي مالطا وغوزو، وطرابلس في شمال إفريقيا، وبعد خسارتها لطرابلس سنة 1551م/958هـ انحسر وجودها في جزيرتي مالطا وغوزو، وللتوسع في الإطلاع على تاريخ هذه المنظمة، انظر:

Taaffe, John: The History of the Holy Military Sovereign Order of St. John of Jerusalem, 4 Vols., Hope Com., London, 1852.

(2) Runciman, Steven: The fall of Constantinople 1453, Camb. University Press, 1969, p. 60.

(3) للإطلاع على سيرة السلطان بايزيد الأول وإنجازاته وفتوحاته، انظر: المحامي، المرجع السابق، ص 137-148.

(4) Runciman, Op. Cit., p. 78. ص. المرجع نفسه، انظر: المرجع السابق، ص 99-86.

(5) Runciman, Op. Cit., p. 85.

(6) المحامي، المرجع السابق، ص 161.

(7) Runciman, Op. Cit., p. 85. انظر: Nocol, Donald M. The Immortal Emperor, the Life and Legend of Constantine Palaiologos, Last Emperor of the Romans, Cambridge University Press, 1992.

Giovanni Giustiniani⁽¹⁾، بناء على طلب ودعم مباشرين من البابا نيقولو الخامس Niccolo V (1447-1455م/851-859هـ)⁽²⁾.

وتخلل الحصار قتال بري وبحري عنيف، ونظراً للخسائر التي تكبدتها المدينة خلال هذه المرحلة أمر الإمبراطور في الثامن والعشرين من نيسان 1453م/ التاسع عشر من ربيع الآخر 857هـ بإعدام مائتين وستين أسيراً مسلماً، فتم ذلك على أسوار المدينة أمام أعين العثمانيين⁽³⁾، ومن أجل تسهيل اقتحامها حاول العثمانيون يوم السادس عشر من أيار/ الثامن من جمادى الأولى حفر نفق تحت أسوارها، ولكن البيزنطيين اكتشفوا الأمر، فسارعت قواتهم إلى إحباط ذلك مكبدة القوات العثمانية خسائر كبيرة⁽⁴⁾.

وبدأت الاستعدادات للهجوم الشامل في الرابع والعشرين من أيار/ السادس عشر من جمادى الأولى، وبعد أربعة أيام بدأ العثمانيون بالهجوم بهدف اختراق الأسوار والدخول إلى المدينة، وخلال ذلك استبسل البيزنطيون في الدفاع عن مدينتهم، ولعل من أكثر المعارك شراسة تلك التي جرت دفاعاً عن البوابة الرئيسية للمدينة المسماة بوابة القديس رومانوس، وعلى الرغم من ذلك نجح العثمانيون في تسلق الأسوار واقتحامها⁽⁵⁾، وقتل الإمبراطور البيزنطي، وهو يحمل سلاحه دفاعاً عن عاصمته، وذلك عندما تمكن بحار عثماني من جز رأسه بسيفه⁽⁶⁾، وتجدر الإشارة هنا إلى أن إفادات شهود العيان قد بدت متناقضة فيما يتعلق بظروف مقتل الإمبراطور ومصيره⁽⁷⁾.

وفي التاسع والعشرين من أيار 1453م/ الحادي والعشرين من جمادى الأولى 857هـ دخل السلطان العثماني محمد الثاني إلى المدينة وصلّى في كنيسة أياصوفيا⁽⁸⁾، التي تحولت إلى مسجد، وحوّل السلطان عاصمته من مدينة أدرنة الواقعة في أقصى شمال غرب تركيا إلى

(1) المحامي، المرجع السابق، ص162.

(2) Runciman, Op. Cit., p.160.

(3) Ibid, p. 108.

(4) العمري، عبدالعزيز: الفتح الإسلامية عبر العصور، ط1، مركز الدراسات والإعلام، الرياض، 1997م، ص372؛ ولمزيد من المعلومات حول موضوع الأنفاق، انظر:

Crowley, Roger: 1453: The holy war for Constantinople, and the clash of Islam and the west, Hyperion, New York, 2005, pp.168-171.

(5) Runciman, Op. Cit., p. 135.

(6) حلیم، إبراهيم بيك: التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، ط1، مطبعة ديوان الأوقاف، القاهرة، 1905م، ص92.

(7) Runciman, Op. Cit., pp. 143-144.

(8) كنيسة أيا صوفيا: بناها الإمبراطور البيزنطي جستنيان (527-565م) في مدينة القسطنطينية، وسماها Hogia Suphia، أي كنيسة الحكمة المقدسة، انظر: الشيخ، محمد مرسي: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دط، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1994م، ص60.

مدينة القسطنطينية، وأطلق عليها اسم إسلامبول أو إستانبول، أي تخت الإسلام أو مدينة الإسلام، وتلقب بالقاتح⁽¹⁾.

وأدى الفتح الإسلامي لمدينة القسطنطينية إلى سقوط الامبراطورية البيزنطية بعد مسيرة تاريخية حافلة بالأحداث والصراعات الداخلية والخارجية، والإنجازات الحضارية أيضاً، ونظراً لجسامة هذا الحدث فقد عدَّ الكثيرون عام 1453م/857هـ من أهم الأعوام المفصلية في التاريخ، حتى بات صالحاً لأن يُعدَّ بداية للتاريخ الأوروبي الحديث⁽²⁾.

وأتاح سقوط القسطنطينية للعثمانيين وضع أقدامهم في الجزء الشرقي من القارة الأوروبية، بدلاً عن السقوط الذي كان متوقَّعاً لبلاد الأندلس بعد بضعة عقود⁽³⁾، وتمكن العثمانيون من مهاجمة المعازل المسيحية في شبه الجزيرة المقدونية وجزيرة رودس والمدن التجارية الإيطالية الكبرى، كجنوة، والبندقية وناپولي، وقضوا على مملكة طرابزون⁽⁴⁾ سنة 1461م/865هـ⁽⁵⁾، كما تمكَّنوا بعد ذلك من إخضاع اثنتي عشرة مملكة، ومائتي مدينة في جنوب وجنوب شرق أوروبا⁽⁶⁾، لذلك توجَّس الأوروبيون خيفة من قيام العثمانيين بشق طريقهم نحو إيطاليا وألمانيا بسهولة ويسر⁽⁷⁾.

2. صدی سقوط القسطنطينية في الأوساط الأوروبية، وأثر ذلك في تنامي النزعة الصليبية ضد العثمانيين والأندلسيين:

في الوقت الذي عمَّ فيه السخط والغضب الأوساط الشعبية الأوروبية بسبب سقوط مدينة القسطنطينية، اعتقد كثيرون أن سقوط المدينة والتعاسس الغربي عن إنجازها ما كان إلا عقاباً للمسيحيين من الرب؛ بسبب هزيمتهم وانفصالهم عن الكنيسة في روما التي باتت متحمسة أكثر من أي وقت مضى للانتقام من المسلمين⁽⁸⁾، ويبدو أن الكنيسة الكاثوليكية في روما هي المسؤولة عن نشر مثل هذه الخزعبلات، سعياً منها لإيجاد حلف مسيحي مضاد للزحف الإسلامي في أوروبا.

- (1) المحامي، المرجع السابق، ص164.
- (2) عوض، محمد مؤنس: الإمبراطورية البيزنطية، ط1، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 2007م، ص409.
- (3) المرجع نفسه، ص410.
- (4) طرابزون: مدينة قديمة تقع شمال شرق آسيا الصغرى، على البحر الأسود، وكانت تابعة للإمبراطورية البيزنطية، انظر: المحامي، المرجع السابق، ص160.
- (5) ياغي، إسماعيل: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، 1966، ص50.
- (6) بشتاوي، عادل: الأمة الأندلسية الشهيدة، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2000م، ص104.
- (7) الرشدي، سالم: محمد الفاتح، ط3، مكتبة الرشاد، جدة، د.ت، ص158-161.
- (8) متري، طارق: العلاقات الإسلامية المسيحية، قراءات مرجعية في التاريخ والحاضر والمستقبل، ط1، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، بيروت 1994م، ص186.

وفضلاً عما ذكر، فقد كانت البابوية تحلم بإخضاع مسيحيي الشرق لسلطتها الدينية، ولكنها ما لبثت أن أصيبت بالفرع وخيبة الأمل عندما رأت أعداداً كبيرة من المسيحيين في جنوب شرق أوروبا يتحولون للإسلام⁽¹⁾، أما في المدن التجارية الإيطالية الكبرى فكان الذعر أكبر؛ لأن تلك المدن وبخاصة جنوة لم تكن مستعدة لمواجهة الخطر العثماني، بسبب انشغالها بصراعاتها التاريخية التي كانت لا تزال متواصلة مع كل من الفرنسيين ومملكة أراغون الإسبانية بزعامة الملك الفونسو الخامس (1416-1458م/819-862هـ)، وكان الأخير قد تملكه الشعور ذاته، وبأن أملاكه ستصبح في مهبّ الرّيح إذا ما قام العثمانيون بالزحف نحو الغرب⁽²⁾.

لقد أدى سقوط القسطنطينية وما تمخّض عنه من نتائج، إلى ازدياد حدّة النزعة الصليبية داخل المؤسسة السياسية والدينية في أوروبا، وعلى المستوى الشعبي أيضاً، ممّا فتح الباب على مصراعية لاستئناف الحروب الصليبية ضد المسلمين من جديد، وبخاصة ضد مسلمي الأندلس، بدعم مباشر من المؤسسة البابوية في روما⁽³⁾، وعدم الاكتفاء بما حقّقه الممالك الإسبانية من إنجازات سابقة ضد مسلمي الأندلس؛ لأن تلك الإنجازات لا تقارن إذا ما قيست بحجم الخسارة التي تلقتها المسيحية جمعاء بسقوط القسطنطينية، مع العلم أن سفراء مملكة قشتالة الإسبانية كانوا قد صرّحوا للبابوية منذ البداية أن المشاركة في أيّ حرب صليبية ضد الأتراك، مرهونة من الناحية العملية بمساعدة البابوية لهم في القضاء على الوجود الإسلامي في بلاد الأندلس⁽⁴⁾.

وانسجماً مع هذا التوجّه أصدر البابا نيقولو الخامس Niccolo V (1447-1455م) في أيلول 1453م/رمضان 857هـ مرسوماً بابوياً دعا فيه الممالك المسيحية إلى تكثيف حربها ضد المسلمين تحت قيادته الروحية، ومن الشخصيات التي وصلها المرسوم البابوي الملك الأراغوني الفونسو الخامس الذي كان موجوداً حينذاك في مدينة نابولي الإيطالية⁽⁵⁾.

وكانت البابوية تتوقع مشاركة أكبر من الملك الأراغوني المذكور بحكم منصبه ملكاً لصلقلية ونابولي، وبسبب الموقع الاستراتيجي المهم لهاتين المنطقتين داخل البحر المتوسط، ومن الجدير ذكره أن الفونسو الخامس كان قد بدأ بالفعل التشاور مع الهنجايريين والبلغاريين لمواجهة العثمانيين، ولكنه أدرك أن انشغاله في الصراع مع الجنوبيين في إيطاليا لا يسمح له بذلك⁽⁶⁾.

(1) طقوش، محمد سهيل: تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، ط2، دار النفائس، بيروت، 2007م، ص113.

(2) Runciman, Op. Cit., pp.162, 166.

(3) Strayer J. and Munro D.: The Middle Ages, 4th. ed., Appelton-Century-Crofts, New - York, 1959, p. 511.

(4) O'Callaghan, J. F.: A History of Medieval Spain, Cornell University Press, Ithaca - London, 1975, p. 567-568.

(5) Runciman, Op. Cit. p.160.

(6) O'Callaghan, Op. Cit., p. 569.

وفي السياق ذاته لاقت دعوات البابا نيقولو الخامس أذاناً صاغية وتأييداً شديداً لدى كرادلة اليونان إيسيدوري Isidore وبيسارون Bessarion، وكتب بيساريون بنفسه إلى البنادقة بضرورة التخلص من خلافاتهم الداخلية في إيطاليا والتفرغ للحرب ضد "اعداء الدين المسيحي"، وكذلك قام المندوب البابوي في ألمانيا بيكولميني Piccolmini بدعوة رجال الدين جميعهم إلى استئناف الحرب الصليبية ضد المسلمين، وفعل الأمر ذاته إمبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة الألماني فريديريك الثالث (1452-1493م)⁽¹⁾.

وابدى دوق مقاطعة بورجندي Burgundy الفرنسية فيليب الثالث (1419-1467م) حماساً شديداً لهذه الدعوات البابوية، حيث عقد في مدينة ليل Lille الفرنسية في شباط 1454م مؤتمراً حضره ممثلان من الأمراء، اتفقوا فيه على استئناف الحرب الصليبية ضد المسلمين⁽²⁾.

وإمعاناً في الرغبة البابوية القاضية بضرورة استئناف عمليات الغزو ضد البلاد الإسلامية في الأندلس والمغرب، فقد أصدر البابا نيقولو الخامس في الثامن من شباط 1454م مرسوماً بابوياً منح بموجبه كلاً من البرتغاليين والإسبان حق تنظيم الحملات الصليبية ضد المدن الإسلامية هناك، وتعهد بمنح صكوك الغفران للملوك والقادة الذين ينصاعون لدعوته⁽³⁾، مما يعيد إلى الأذهان تلك الصكوك التي كانت تمنح لمن كان يقوم بالخدمة العسكرية في فلسطين أبان حقبة الحروب الصليبية التي شنتها أوروبا ضد بلاد الشرق الأدنى الإسلامي خلال الفترة الواقعة بين 1095-1291م/488-690هـ⁽⁴⁾.

أما البابا كالستو الثالث Callisto III (1455-1458م) فكان من أكثر البابوات اهتماماً بالحروب الصليبية، حيث كان يراوده الحلم الصليبي الأوروبي التقليدي المتمثل بضرورة السيطرة على بيت المقدس، فدعا الدول الأوروبية وبخاصة حكومات جنوب أوروبا الكاثوليكية إلى البحث عن صيغة توافقية من شأنها تشكيل حلف صليبي لتأييد الإسبان وإمدادهم بالأموال والفرسان، من أجل القضاء على مملكة غرناطة الأندلسية وطرد سكانها المسلمين ومطاردتهم في أماكن اللجوء، ومن أجل تحقيق هذه الأهداف دعا إلى زيادة ضريبة ال Cruzada⁽⁵⁾، كما أمر بنزع الذهب والفضة عن الكتب والأواني في المؤسسات العامة، وكذلك العمل على بيع ذخائر الكنائس وكنوزها الثمينة من أجل تزويد الجيوش بالمال والعتاد⁽⁶⁾.

(1) Runciman, Op. Cit. p165.

(2) Housley, Norman: The Later Crusades 1274-1580, From Lyons to Alcazar, 1st. ed., Oxford University Press, New York, 1992, p. 101.

(3) دار، محمد أحمد: علاقات المغرب الأقصى الخارجية في عهد الأسرة السعدية (915-1050هـ/1509-1640م)، رسالة دكتوراة غير منشورة، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 1996م، ص18.

(4) عمران، محمود سعيد: تاريخ الحروب الصليبية (1095-1291م)، د.ط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000م، ص346.

(5) Cruzada: ضريبة صليبية فرضتها البابوية على أمم أوروبا؛ لتمويل الحرب ضد مسلمي الأندلس، انظر: بشتاوي، المرجع السابق، ص104.

(6) Housley, Op. Cit., pp. 102-105.

وانسجاماً مع هذا التوجه عمل البابا المذكور على تشجيع ودعم المنظمات الصليبية الإسبانية المتطرفة، وعلى رأسها منظمة فرسان القديس يعقوب Orden de Santiago⁽¹⁾، التي كانت قد أقيمت في مملكة ليون سنة 1161م بدعم من البابا ألساندرو الثالث Alessandro III (1159-1181م)، على يد قطاع الطرق والمجرمين التائبين، الذين وهبوا حياتهم لقتال المسلمين في الأندلس بهدف التكفير عن ذنوبهم، واتخذت هذه المنظمة من السيف الدامي والصليب شعاراً لها، ولقيت هذه وغيرها من المنظمات الصليبية الإسبانية الرعاية والدعم من جانب البابا أنوسنت الثالث Innocent III (1198-1216م)⁽²⁾.

ووجدت دعوات المؤسسة البابوية صداها لدى ملك البرتغال الفونسو الخامس الذي بدأ فعلياً بالتحضير لهذا الأمر، ولكنه ما لبث أن أدرك بأن ملوك أوروبا الذين تقاعسوا عن نجدة مدينة القسطنطينية، لن يكونوا أكثر حماساً لاستعادتها، ولذلك اتجه لمهاجمة مدينة القصر الصغير⁽³⁾ في بلاد المغرب سنة 1458م؛ وذلك من أجل الحد من النجيدات المغربية لبلاد الأندلس⁽⁴⁾.

واستمر الدعم البابوي اللامحدود للملوك الإسبان من قبل البابا سيستو الرابع Sisto IV (1471-1484م) الذي عرف عنه تشجيعه ودعمه لحركة الاسترداد الإسبانية مادياً ومعنوياً؛ لأنه كان يعتقد بأن النصر على الإسلام في غرب أوروبا سيعوّض المسيحيين عن ضياع القسطنطينية في شرقها⁽⁵⁾.

وكان البابا المذكور بأمر الحاجة إلى انتصار مسيحي من شأنه أن يرفع معنويات الكاثوليك بسبب سقوط القسطنطينية، وعليه لم يكن من الغريب أن يبدي حماسه الشديد لمشروعه الصليبي في الأندلس، وبخاصة بعد أن تلقى رسالة من الملكة القشتالية إيزابيل Isabel (1474-1504م) التي تطلب فيها الدعم البابوي، وتؤكد عزمها على اجتثاث الإسلام من بلاد الأندلس "ليس رغبة في تكديس الكنوز، وإنما رغبة في خدمة الرب وحماسنا لدينه

(1) O'Callaghan, Op. Cit., p. 33.

(2) أبو رميلة، هشام: علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس، ط1، دار الفرقان، عمان، 1984م، ص305. للمزيد حول المنظمات الصليبية الإسبانية، انظر:

Tagore, Sourindro Mohun: The orders of knighthood, British and foreign, 1st. ed., Catholic Orphan Press, Calcutta, 1884.

(3) القصر الصغير: تسمى أيضاً قصر مصمودة أو قصر المجاز، مدينة ما بين سبتة وطنجة على ساحل المتوسط، قبالة الجزيرة الخضراء في بلاد الأندلس، انظر: الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله (ت. 1228م/626هـ): معجم البلدان، 8 أجزاء، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1997م، ج2، ص59.

(4) الناصري، أحمد بن خالد السلاوي (ت. 1315هـ/1897م): الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، 9 أجزاء، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دط، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997م، ج4، ص96-97.

(5) Miralles, Alvaro F. de Cordova: Alejandro VI y Los Reyes Catolicos, Relaciones Politico Eclesiasticas (1492-1503), Thesis Doctoratum in Theologia, Facultas Theologiae, Pontificia Univir. Sanctae Crucis, Romae, 2005, p.43.

الكاثوليكي المقدس⁽¹⁾، يشار بأن إيزابيل كانت قد ولدت قبل سنتين من سقوط القسطنطينية، ولذلك هيمن على وعيها منذ بداية طفولتها أكبر هزيمة لحقت بالمسيحيين على يد الإسلام بسقوط عاصمة الكنيسة الشرقية⁽²⁾.

وبناء عليه، عمل البابا على تشجيع الإسبان على البدء بوضع الخطط الكفيلة بالسيطرة على ما تبقى من الأندلس، والانتقال بعدها للسيطرة على العالم الإسلامي، ومن أجل ضمان عدم التضارب في المصالح الإستعمارية مع البرتغال، دعا البابا الطرفين إلى عقد اجتماع إسباني برتغالي برعايته من أجل الاتفاق على ترسيم مناطق النفوذ، فتمخض ذلك عن إبرام معاهدة معاهدة الكاكوفاس Tratado de Alcacovas بين الطرفين في الرابع من سبتمبر 1479م⁽³⁾.

وفي الثالث والعشرين من تشرين الثاني من العام المذكور أصدر البابا مرسوماً وجهه إلى ملوك أوروبا وشعوبها، وأمر فيه بزيادة ضريبة الكروزادا لتمويل الحرب ضد مسلمي الأندلس، وحثّ المقرضين والممولين اليهود والألمان والهولنديين والإيطاليين على القيام بواجبهم؛ بهدف دعم الممالك الإسبانية في حروبها التي وصفها بالمقدسة، وبعد وفاة سيستو الرابع أكمل خليفته أنوسنت الثامن Annocent VIII (1484-1492م) هذا الدور⁽⁴⁾.

ويتبين مما ذكر، أن سقوط القسطنطينية وما ترتب عليه من نتائج، وبخاصة بعد التمدد العثماني وانتشار الإسلام في جنوب شرق أوروبا، قد أدى إلى تأجيج النزعة الصليبية البابوية والأوروبية، وتوجيه بوصلة الحرب باتجاه مسلمي الأندلس، من خلال دعم ومساعدة الممالك الإسبانية⁽⁵⁾.

3. الأوضاع الداخلية الإسبانية قبيل اتحاد مملكتي قشتالة وأراغون سنة 1479م

بعد انتهاء الفتح الإسلامي لمعظم أراضي بلاد الأندلس خلال الفترة الواقعة ما بين سنتي 711م/92هـ و 714م/95هـ بدأت الممالك الإسبانية بالظهور، وذلك في منطقة أستوريش Asturias الواقعة شمال غرب شبه الجزيرة الإيبيرية، فتمخض عن ذلك قيام مملكة أستوريش بقيادة القائد القوطي بيلايو Pelayo (685-737م)، بهدف ممارسة سياسة "إعادة الاسترداد"

(1) بشتاوي، المرجع السابق، ص104.

(2) المرجع نفسه، ص116.

(3) Acero, Beatriz Alonso: Oran y Mazalquivir en la Política Norteafricana de España 1589-1639, Tesis Doctoral, Departamento de la Historia Moderna, Facultad de Geografía e Historia, Universidad Complutense de Madrid, 1997, p. 3.

وللاطلاع على كامل بنود معاهدة الكاكوفاس، انظر:

Davenport, F. and Paullin, C.: European Treaties Bearing on the History, Lawbook E., New-Jersey, 2004, pp. 35-48.

(4) بشتاوي، المرجع السابق، ص104.

(5) دنون، عبدالحكيم: آفاق غرناطة، ط1، دار المعرفة، دمشق، 1988، ص45.

تجاه المدن والمناطق الإسلامية في الأندلس، ومنذ ذلك الحين ازدادت أعداد الممالك المسيحية في شبه الجزيرة الإيبيرية⁽¹⁾.

وما أن حلَّ القرن الثالث عشر حتى أصبحت تلك الممالك ثلاثاً، وهي قشتالة وأراغون والبرتغال، فانشغلت الأخيرة بتوطيد استقلالها الذاتي، في حين بقيت المملكتان الإسبانيتان تعملان من أجل القضاء على الوجود الإسلامي في الأندلس⁽²⁾.

وفي الوقت الذي كانت فيه مملكتا قشتالة وأراغون مشغولتين بمحاربة مسلمي الأندلس، إلا أنهما لم تنعما بالأمن والاستقرار الداخلي على مدار عقود؛ بسبب الخلافات الثنائية بينهما، وذلك بسبب سعي كل منهما للاستحواذ على مزيد من النفوذ السياسي والجغرافي على حساب الأخرى، فضلاً عن التدخل المتبادل في الشؤون الداخلية، خاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الزيجات السياسية المتبادلة، وتمازج الدم بين أمراء الأسر الحاكمة في هذه الممالك، مما جعل من الصعب في كثير من المراحل على أي من الأطراف حسم الأمور لصالحه⁽³⁾.

فبعد وفاة الملك الأراغوني فرناندو الأول (Fernando I) (1412-1416م) خلفه على العرش ولده الفونسو الخامس (1416-1458م)، وتوجّهت أنظاره نحو تعزيز نفوذ مملكته في إيطاليا وجزر الحوض الغربي من البحر المتوسط، وكذلك محاولة السيطرة على بعض المواقع في بلاد المغرب لمنع النجدات من الوصول إلى بلاد الأندلس، وبعد وفاته دون عقب تولى المملكة الأراغونية أخوه خوان الثاني (Juan II) (1458-1479م)⁽⁴⁾.

وامتاز الملك الأراغوني الجديد بقدرته الفائقة على تسيير أمور مملكته، ولكنه ما لبث أن شغلته ثورة ولده الأكبر الأمير كارلوس دي بيانا (Carlos de Viana) (1421-1461م)، إثر قيامه بحرمان ابنه المذكور من حقه في وراثة عرش أراغون، مما أثار حفيظة ملك قشتالة هنري الرابع (Enrique IV) (1454-1474م) الذي وقف إلى جانب الأمير كارلوس⁽⁵⁾، وتزامناً مع ذلك سعى الملك الأراغوني للسيطرة على مملكة قشتالة، فبدأ يتدخل في شؤونها الداخلية بمساعدة أنصاره في البلاط القشتالي، فأسهم ذلك في زيادة توتير الأجواء بين المملكتين⁽⁶⁾.

(1) Strayer, Op. Cit., p.344.

(2) عنان، محمد عبدالله: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، وهو العصر الرابع من كتاب دولة الإسلام في الأندلس، ط 4، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1987م، ص 85-88.

(3) Zurita, Jeronimo(1512-1580): Anales de la Corona de Aragon, ed. de A. C. Lopez Zaragoza, 1967-1977, Lib. XI: Cap. IX.

(4) Ferreras, Juan de (1652-1735): Histoire Generale d' Espagne, Traduite par N.-G. d'Hermilly, Zacharie Chtelain, Amsterdam, 1751, VII, pp. 59-60.

(5) عنان، المرجع السابق، ص 179.

(6) O'Callaghan, Op. Cit., p. 570.

ووصلت الأمور ذروتها سنة 1460م، عندما ثار أهالي كتلونيا Catalonia في شمال شرق إسبانيا ضد حكم الملك الأراغوني بدعم من القشتاليين، وعلى الرغم من عقد الطرفين معاهدة بيلافرانكا ديل باناديس Vilafranca del Panades في حزيران 1461م، إلا أن الثورة استمرت حتى سنة 1473م⁽¹⁾.

أما مملكة قشتالة فقد عجزت منذ بداية القرن الخامس عشر وحتى أوائل النصف الثاني منه عن القيام بأيّ دور داخلي أو خارجي ذي قيمة؛ وكان ملوكها قد وصلوا إلى سدّة الحكم عن طريق الثورات، فضعت سلطتهم وقلّت هيبتهم، وبخاصة خلال فترة حكم ملك قشتالة خوان الثاني Juan II (1406-1454م) الذي انشغل بمقارعة نفوذ الأشراف والنبلاء الطامعين بالسلطة، ولمواجهة ذلك اضطر إلى إرهاب الرعية بالضرائب العالية، وعندما توفي خوان الثاني سنة 1454م ترك الأميرة إيزابيل Isabel (1451-1504م) وهنري الرابع، فالّ العرش القشتالي إلى الأخير، مما أسهم في بروز أزمات أخرى⁽²⁾.

فقد نشبت في عهد الملك هنري الرابع أزمة داخلية تمحورت حول ولاية العهد؛ لأنه لم ينجب سوى الأميرة خوانا دي أبيس Juana de Avis (ت. 1475م)، وكان يرغب في تسميتها وليّة للعهد، مما أوقعه في نزاع مع رجال الدين والنبلاء⁽³⁾، وكان على رأس المعارضين كبير مستشاري الملك خوان باشيكو Juan Pacheco (1445-1474م)، فقام الملك القشتالي بحجب الثقة عنه وتعيين الوزير بلتران دي لا كويبا Beltran de la Cueva (1435-1492م) بدلاً منه، فعلا نجم دي لا كويبا وبخاصة عندما ترأس منظمة سانتياغو الدينية، وحينها قطع خوان باشيكو علاقاته مع الملك، وأصدر بياناً طعن فيه بشرعية الأميرة الطفلة خوانا، وقال أن أباه الحقيقي هو دي لا كويبا، مما أدى إلى اشتعال حرب أهلية في مملكة قشتالة في حزيران 1465م، وطعن النبلاء الذين انضموا إلى خوان باشيكو بشرعية الملك القشتالي⁽⁴⁾.

وفي السنة نفسها أعلن فلاحو مقاطعة جاليسيا Galicia الواقعة في الطرف الشمالي الغربي من إسبانيا ثورة مسلحة للمطالبة بإصلاحات اجتماعية واقتصادية، ووضع حدّ للرّق والإقطاع الممارس بحقهم، وذلك بدعم من بعض النبلاء ورجال الدين، فتصدى هنري الرابع لهذه الثورة ممّا أدى إلى استنزاف الكثير من موارد الدولة الاقتصادية والبشرية، واستمرت الحرب الأهلية على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها الملك لاسترضاء أعدائه⁽⁵⁾.

(1) Prescott, William H.: History of the Reign of Ferdinand and Isabella the Catholic, George Routledge, London, 1892, pp. 58-72.

(2) Prescott, Op. Cit., pp. 47-58.

(3) اليوسف، عبد القادر أحمد: العصور الوسطى الأوروبية 1500-476م، د. ط، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، 1967م، ص 340.

(4) Zurita, Op. Cit., Lib. XVII: Cap. LX, Lib. XVIII: Cap. II.

(5) O'Callaghan, Op. Cit., p. 573.

وفي سنة 1468م منح هنري الرابع أخته الأميرة إيزابيل حقّ وراثة عرش قشتالة من بعده، وحينها ظهرت أطماع بعض ملوك وأمراء الممالك الأوروبية للاستحواذ على هذه المملكة؛ من خلال السعي للزواج من الأميرة الشابة⁽¹⁾، فوجد ملك أراغون خوان الثاني أن الفرصة قد باتت مهيأة أكثر من أي وقت مضى لإنجاز الوحدة بين مملكته ومملكة قشتالة على الرغم من الكراهية التاريخية التقليدية بينهما، من خلال تزويج ابنه الأمير فرناندو وريث عرش أراغون من الأميرة القشتالية⁽²⁾، فتم ذلك سنة 1469م، ومن أهم شروط هذا الزواج العمل المشترك على متابعة الحرب ضد الأندلسيين⁽³⁾.

وشكّلت وفاة الملك القشتالي هنري الرابع سنة 1474م بداية لوضع أسس الوحدة الإسبانية بين مملكتي قشتالة وأراغون، وذلك عندما أعلنت إيزابيل نفسها ملكة على قشتالة باسم إيزابيل الأولى (1474-1504م)، وما أن توفي الملك الأراغوني خوان الثاني سنة 1479م حتى ارتقى ابنه فرناندو عرش مملكة أراغون باسم فرناندو الثاني Fernando II (1479-1516م)⁽⁴⁾، وبذلك اتّحدت مملكتا قشتالة وأراغون على أساس ديني كاثوليكي، فبدأت إسبانيا بذلك عصراً جديداً من القوة والعظمة لم تشهده في تاريخها⁽⁵⁾، خاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار رقعتها الجغرافية الواسعة، التي اشتملت على معظم أراضي شبه الجزيرة الإيبيرية، بالإضافة إلى جزر الباليار⁽⁶⁾ وصقلية وسردانيا ومالطا ومدينة نابولي الإيطالية⁽⁷⁾.

وبعد أن تمت الوحدة بين التاجين بدأ الملكان فرناندو وإيزابيل العمل سوياً على توطيد نظام الحكم الإسباني، وبناء مملكة قوية قادرة على القيام بمسؤولياتها؛ فاتبعا سياسة مركزية في الحكم بهدف القضاء على نفوذ النبلاء والإقطاعيين، والتفرغ لإنهاء الوجود الإسلامي في الأندلس، وذلك تحت شعار "شعب واحد، سلطان واحد، دستور واحد، دين واحد، وسيف

(1) Pulgar, Hernando del (1436-1493): Cronica de los Senores Reyes Catolicos, Don Fernando y Dona Isabel de Castilla y de Aragon, Imprenta de Benito Montfort, Valencia, 1780, pp. 12-13.

(2) Strayer, Op. Cit., p. 509.

(3) Zurita, Op. Cit., Lib. XVIII: Cap. XXVI.

(4) Ibid., Lib. XX: Cap. XXVII.

(5) Fredet, Peter: Modern History From the Coming Christ and the Change of the Roman Republic Into an Empire to the Year of Our Lord 1850, 10th. ed., Charles Dolman Com, London, 1853, p. 347.

(6) جزر الباليار: خمس جزر، تقع قبالة السواحل الشمالية الشرقية لإسبانيا، وهي: كابرييرا Cabrera و فورمانتيرا Formantera وإبيزا Ibiza ومايوركا Mallorca ومينوركا Menorca، وللإطلاع على تاريخ هذه الجزر في العصر الإسلامي، وأهمية موقعها ودورها التاريخي في صراعات البحر المتوسط بشكل مفصل، انظر: سيسالم، عصام سالم: جزر الباليار المنسية (89-685هـ/708-1287م)، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1984.

(7) O'Callaghan, Op. Cit., p. 576.

واحد⁽¹⁾، كما عملا على سن القوانين الهادفة لحماية الاقتصاد الإسباني، وطلبا المزيد من الدعم المالي من المؤسسة البابوية⁽²⁾، وحرصا على تعزيز قدرات الجيش من خلال رفده بمزيد من قطع المدفعية وتطوير أداء سلاح المشاة⁽³⁾.

أما على الصعيد الخارجي فقد اهتم الملكان بضرورة توثيق العلاقات مع مختلف العواصم الأوروبية، حيث نشطا في إرسال البعثات الدبلوماسية للعديد من الدول لمساعدتهما في حرب الاسترداد ضد مسلمي الأندلس، وأدت هذه البعثات الدبلوماسية دوراً حيوياً في إنجاح سياستهما الخارجية⁽⁴⁾.

4. الأوضاع الداخلية الأندلسية قبيل سقوط غرناطة سنة 1492م/897هـ.

بعد أن قامت الدولة الموحدية (1146-1269م/541-668هـ)⁽⁵⁾ في بلاد المغرب، عملت على بسط نفوذها وسيطرتها على بلاد الأندلس⁽⁶⁾، ولكن الوجود الموحدى هناك ما لبث أن تعرّض سنة 1212م/609هـ لانتكاسة كبيرة إثر هزيمة الموحدين أمام الإسبان في معركة العقاب⁽⁷⁾.

ولم يكن لهذا النصر الإسباني أن يتحقق لولا الدعم البابوي السخي الذي قدّمه البابا أنوسنت الثالث، الذي عرف عنه تعصّب الصليبي وحقده الشديد على الإسلام والمسلمين، ومن ذلك قيامه بإرسال المبعوثين والرسائل إلى أمم أوروبا وأساقفة جنوب فرنسا لحثهم على دعم

(1) Boxer, Charles R.: The Church Militant and Iberian Expansion 1440-1770, J. Hopkins Univesity, Baltimore - London, 1978, p. 77.

(2) Strayer, Op. Cit., P. 510.

(3) O'Callaghan, Op. Cit. p. 667.

(4) Elliott, J.: Imperial Spain 1469-1716, 1st. ed., Penguin Group, London, 1963, p. 132.

(5) الدولة الموحدية: قامت في بلاد المغرب على أنقاض دولة المرابطين منذ سنة 1146م/541هـ، حتى سنة 668/1269هـ واتخذت من مدينة مراكش عاصمة لها؛ وللاطلاع على مسيرة تاريخها، انظر: الزركشي، أبا عبدالله محمد بن إبراهيم (كان حياً سنة 1488م/894هـ): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور، ط2، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م.

(6) المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد (ت. 1631م/1040هـ): نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، 8 أجزاء، تحقيق إحسان عباس، (د.ط)، دار صادر، بيروت، 1988م، ج4، ص377-378.

(7) معركة العقاب: حدثت بين الإسبان بقيادة الملك القشتالي ألفونسو الثامن (Alfonso VIII 1158-1214م/553-611هـ) والموحدين بقيادة الخليفة محمد الناصر (1198-1213م/594-610هـ) في موضع يقال له العقاب، ما بين مدينة جيان وقلعة رباح في بلاد الأندلس سنة 1212م/609هـ، وكان النصر فيها للإسبان، انظر: المراكشي، عبدالواحد (ت1249م/647هـ): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبطه وصححه محمد العريان ومحمد العلمي، د.ط، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1949، ص321-322.

الممالك الإسبانية مادياً وبشرياً، كما وعدهم بمنحهم صكوك الغفران إن هم استجابوا لدعواته⁽¹⁾.

وتمخض عن هزيمة الموحدين في العقاب انحسار وجودهم في بلاد الأندلس، مما مهد لقيام مملكة غرناطة على الأراضي الأندلسية الواقعة جنوبي نهر الوادي الكبير⁽²⁾، على يد الأمير الغالب بالله محمد بن يوسف بن نصر (1237-1272م/635-671هـ)، واتخذ من مدينة غرناطة عاصمة له⁽³⁾، واشتملت المملكة الوليدة على ثلاث ولايات هي: غرناطة في الوسط، والمرية⁽⁴⁾ في الشرق، ومالقة⁽⁵⁾ في الجنوب الغربي⁽⁶⁾.

واستغلت الممالك النصرانية الإسبانية ظروف تلك المرحلة الانتقالية وما أعقبها من أعمال وإجراءات توطيدية، فتمكنت من السيطرة على عدد من المدن الأندلسية المهمة، كمدينة ماردة⁽⁷⁾ سنة 1229م/626هـ، وجزيرة ميورقة أكبر جزر البليار سنة 1230م/627هـ⁽⁸⁾،

- (1) الشطاط، علي حسين: نهاية الوجود العربي في الأندلس، دط، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، 2001م، ص91.
- (2) نهر الوادي الكبير: من أشهر أنهار شبه الجزيرة الإيبيرية، يقع في جنوبها، وينبع من جبال سييرا مورينا وسييرا نيفادا ويصب في الأطلسي، ومن أهم المدن الواقعة على ضفافه قرطبة وإشبيلية وغرناطة، انظر: حتاملة، محمد عبده: إيبيريا قبل مجيء العرب المسلمين، ط1، المكتبة الوطنية، عمان، 1996م، ص80-81.
- (3) ابن الخطيب، لسان الدين (ت.1374م/776هـ): اللحة البدرية في الدولة النصرانية، ط2، دار الأفاق الجديدة، بيروت، 1978م، ص32؛ ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى (ت.1286م/685هـ): المغرب في حلى المغرب، جزءان، تحقيق: شوقي ضيف، ط4، دار المعارف، القاهرة، 1964م، ج1، ص57 وج2، ص251-252؛ انظر أيضاً: ابن خلدون، أبو زيد عبدالرحمن (ت.1406م/808هـ): تاريخ ابن خلدون، 7 أجزاء، ضبط المتن والحواشي: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دط، دار الفكر، بيروت، 2000م، ج4، ص215-219، ولمزيد من الاطلاع على تأسيس مملكة غرناطة، انظر: ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، 4 أجزاء، تحقيق: محمد عبدالله عنان، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1974، ج1، ص92-101.
- (4) مريّة: مدينة أندلسية ساحلية تقع جنوب شرق بلاد الأندلس، بناها الخليفة عبدالرحمن الثالث (912-961م/300-350هـ) سنة 955م/344هـ، مرساها من أهم مراسي بلاد الأندلس، اشتهرت بالصناعات النسيجية وبخاصة الحريرية منها، انظر: الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت.1495م/900هـ): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، (دط)، مكتبة لبنان، بيروت، 1984، ص537-538.
- (5) مالقة: مدينة ساحلية، تقع أقصى جنوب غرب بلاد الأندلس، وتبعد عن أرشذونة ما يقرب من ثمانية وعشرين ميلاً، انظر: الحميري، المصدر السابق، ص25.
- (6) ابن الخطيب، الإحاطة، (مقدمة المحقق)، ص16.
- (7) ماردة: مدينة أندلسية تبعد عن بطليوس عشرين ميلاً، انظر: الحميري، المصدر السابق، ص518-519.
- (8) ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص219.

وقرطبة⁽¹⁾ سنة 1236م/633هـ⁽²⁾، وبلنسية⁽³⁾ سنة 1238م/636هـ⁽⁴⁾ وإشبيلية⁽⁵⁾ سنة 1248م/646هـ، ومرسية⁽⁶⁾ سنة 1267م/665هـ⁽⁷⁾.

وبعد سقوط المدن المذكورة هاجر أهلها إلى غرناطة ومالقة والمريّة، "وضاق الملك بعد اتساعه"⁽⁸⁾، ولم يكن لمملكة غرناطة أن تصمد في وجه الهجمات الإسبانية لولا النجيدات والحملات التي جرّدها الدولة المرينية (1269-1465م/668-869هـ)⁽⁹⁾، "ولم يزل بني مرين مرين يعينون أهل الأندلس بالمال والرجال، وتركوا منهم حصّة معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غزاة، فكانت لهم في العدو وقائع مذكورة، ومواقف مشكورة، وكان عند ابن الأحمر منهم جماعة بغرناطة، وعليهم رئيس من بيت ملك بني مرين يسمونه شيخ الغزاة"⁽¹⁰⁾.

وعلى الرغم من مظاهر القوة السياسية والحضارية التي شهدتها مملكة غرناطة عبر تاريخها، إلا أنها ما لبثت في أواخر عهدها أن ضعفت، ومن أهم أسباب هذا الضعف وملامحه الأوضاع الداخلية المضطربة التي تمحورت في السعي للسيطرة على النفوذ والسلطة، ففي عهد أبي عبدالله محمد بن يوسف الثالث الملقب بالأيسر (1417-1454م/820-858هـ)، استبد

- (1) قرطبة: قاعدة الأندلس وأهم مدنها، تقع على نهر الوادي الكبير، وامتدت أحواضها في العصور الإسلامية حتى إشبيلية وجيان، انظر: الحميري، المصدر السابق، ص457-459.
- (2) ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص217.
- (3) بلنسية: عرفت بمدينة التراب، تقع على ضفة المتوسط شرقي بلاد الأندلس، انظر: الحموي، المصدر السابق، ج2، ص386؛ خوند، مسعود: الموسوعة التاريخية الجغرافية، 12 جزء، د.ط، دار رواد النهضة للطباعة والنشر، بيروت، د.ت، ج3، ص304.
- (4) ابن خلدون، المصدر السابق، ج4، ص219.
- (5) مدينة إشبيلية: تقع على نهر الوادي الكبير، اسمها يعني "المدينة المنبسطة"، وهي من بناء الرومان، ويطل عليها جبل الشرف، واشتهرت بالزيتون والقطن وقصب السكر، انظر: الحميري، المصدر السابق، ص58-60.
- (6) مرسية: مدينة في كورة تدمير بالشرق الأندلسي، ولها نهر يسمى باسمها، وتبعد عن بلنسية خمس مراحل، انظر: الإدريسي، محمد بن محمد الحسيني (ت560هـ/1164م): نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، جزءان، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1989م، ج2، ص557-559.
- (7) ابن الخطيب: الإحاطة، ج2، ص98.
- (8) المقرئ، نفح، ج4، ص510.
- (9) الدولة المرينية: قامت في بلاد المغرب الأقصى على يد يعقوب بن عبدالحق المريني (1258-1286م/656-685هـ) بعد أن تخلص من سلطة الموحدين واتخذ من مدينة مراكش عاصمة له سنة 1269م/668هـ، فشمّل نفوذه المناطق الواقعة ما بين نهر ملوية وسواحل بلاد المغرب الأقصى الواقعة على الأطلسي، إلى أن بادت سنة 1465م/869هـ، للإطلاع على نشأة وتاريخ الدولة المرينية انظر: الفاسي، علي بن أبي زرع(ت. 1340م/741هـ): الذخيرة السنوية في تاريخ الدولة المرينية، (د.ط)، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1972م، وللتوسع في ذلك انظر: سليم، محمد عيسى: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في دولة بني مرين بالمغرب، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1979م.
- (10) المقرئ، نفح، ج4، ص385.

بنو سراج⁽¹⁾ بالحكم، وكثرت تدخلاتهم في الشؤون الداخلية الغرناطية، ورافق ذلك ازدياد الفتن الفتن في عهده، مما مكن الإسبان من اجتياح العديد من المناطق الأندلسية، كما رافق ذلك استنجد بعض القوى المحلية بالممالك الإسبانية، ومن ذلك قيام الأمير يوسف بن محمد بن اسماعيل بالثورة ضد الأيسر، والتحالف مع القشتاليين، وليس هذا فحسب، بل دفع الجزية لهم، ووصل به الأمر إلى حضور مجلس الكورتيس (الأعيان) القشتالي⁽²⁾.

وعلى الرغم من تحلل الملك الغرناطي سعد بن إسماعيل النصري (1454-1464م/858هـ-868هـ) من الالتزامات والعهود التي قطعها أسلافه مع الإسبان، بما في ذلك الامتناع عن دفع الجزية للملك القشتالي هنري الرابع، إلا أنه اضطر للخضوع بفعل الضغط العسكري الإسباني، ومن ناحية أخرى، فقد حاول سعد التخلص من نفوذ بني سراج، ولكنهم ثاروا عليه، وخلعوه، ونصبوا بدلاً منه ابنه أبا الحسن علي بن سعد (1464-1482م/868-887هـ) الذي سجن أباه، فبقي مسجوناً حتى مات⁽³⁾.

وصل أبو الحسن علي بن سعد إلى الحكم في ظلّ أوضاع داخلية مضطربة، ففي أول عهده شهدت العديد من المدن الأندلسية حالة من الفوضى والفتن وبخاصة مدينة مالقة، مما أدى إلى استنزاف كثير من موارد الدولة، فضلاً عن الكوارث الطبيعية التي اجتاحت غرناطة، فعمد الملك إلى تحصين البلاد، وتقوية الجيش، وضبط الأمن، ومن ناحية أخرى تمكّن من تحقيق بعض الانتصارات العسكرية المهمة على الإسبان، مما أدى إلى ارتفاع معنويات الغرناطيين⁽⁴⁾.

وكان أبو الحسن قد تزوج من عائشة ابنة عمه أبي عبدالله الأيسر، وقد عرفت في التاريخ الأندلسي باسم عائشة الحرة، فأنجب منها ولدين هما محمد ويوسف، وعندما تقدّمت به السن تزوّج من جارية إسبانية اسمها إيزابيل سوليس Isabel de Solis (ثريا الرومية)⁽⁵⁾، وتجدد الإشارة إلى أن ثريا هذه كانت قد أنجبت لأبي الحسن ولدين، هما سعد ونصر، وقد اعتنقا المسيحية بعد سقوط غرناطة، وتسميا على التوالي بضون فرناندو وضون خوان⁽⁶⁾، وتلقبا بأمييري غرناطة Infantes de Granada، وتزوجا فيما بعد بفتاتين إسبانيتين⁽⁷⁾.

- (1) بنو سراج: يعود نسبهم إلى مزحج وطيء، وفدوا إلى بلاد الأندلس مع الفاتحين الأوائل، ولكنهم لم يظهروا على المسرح السياسي إلا في أواخر العهود الإسلامية في الأندلس، فلعبوا دوراً كبيراً في أحداث مملكة غرناطة، انظر: فرحات، يوسف: غرناطة في ظل بني الأحمر، ط1، دار الجبل، بيروت، 1993م، ص44.
- (2) المرجع نفسه، ص44-45.
- (3) حتاملة، محمد عيده: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ط1، مطابع الدستور التجارية، عمان - الأردن، 2000م، ص603.
- (4) المقري، نفع، ج4، ص511-512.
- (5) المصدر نفسه، ص512.
- (6) دنون، المرجع السابق، ص47.
- (7) حتاملة، الأندلس، ص607.

وأصبح الملك أداة طيعة بيد ثريا الرومية التي أرادت أن تجعل أحد ابنائها ولياً للعهد، فدبرت مكيدة لعائشة وولديها، ممّا أدى إلى حبسهم في برج قمارش⁽¹⁾، ولكن عائشة لم تقف مكتوفة اليدين، فلجأت إلى الاستعانة ببني سراج، وعندما علم الملك بذلك لاحقهم، فهربت وولديها، إلى أن ظهر ابنها أبو عبدالله محمد في مدينة وادي أش Guadix⁽²⁾، وانقسم الناس إلى قسمين، ما بين مؤيد لأبي الحسن وزوجته الرومية، ومؤيد لعائشة وولديها، مما شكّل إيذاناً بتجدد الصراعات الداخلية⁽³⁾.

واغتنم الناس الفرصة فبايعوا أبا عبدالله محمد بمساعدة بني سراج سنة 1482م/887هـ، ودخل أبو عبدالله غرناطة ملكاً عليها باسم أبي عبدالله محمد الثاني عشر (الصغير) بعد أن فر أبوه إلى مالقة، حيث يقطن عمه أبو عبدالله محمد بن سعد (الزغل)، ثم ما لبث أن وقع الصغير في أسر الإسبان سنة 1483م/888هـ خلال إحدى الحملات التي قادها ضدهم، ورفض القشتاليون إطلاق سراحه، مما أتاح لوالده أبي الحسن العودة إلى الحكم مرة أخرى (1483-1485م/888-890هـ)⁽⁴⁾.

وخلال الفترة القصيرة التي تولاها أبو عبدالله الزغل بقيت على حالها من السوء، إذ استمرت الثورات والقتال الداخلي، وبخاصة في حي البيازين⁽⁵⁾، وحينها انتهب القشتاليون الفرصة من أجل صبّ مزيد من الزيت على نار الفتنة الداخلية الغرناطية، فأطلقوا سراح أبي عبدالله الصغير وساعده في محاربة عمه لاسترداد عرشه، فتّم له ذلك، أما الزغل فانهز إلى مدينة وادي أش وأسس لنفسه ملكاً فيها، فانقسمت المملكة إلى قسمين، وفي ظل هذه الظروف استطاع النصارى الإسبان تحقيق ما كانوا يطمحون به ويسعون من أجله منذ زمن بعيد⁽⁶⁾.

5. جهود الإسبان في إنهاء الحكم الأندلسي، ومظاهر الدعم البابوي

في ظل الأجواء الأوروبية والإسبانية المفعمة بالحماس الديني، عقد الملك القشتالي هنري الرابع سنة 1456م/860هـ العزم على استئناس حركة الاسترداد ضدّ ما تبقى من مدن بلاد الأندلس، مستغلاً الخلافات السياسية السائدة بين ملوكها وأمرائها، فضلاً عن تدخلات بني سراج في شؤونها الداخلية.

- (1) برج قمارش: أحد أهم مرافق قصور الحمراء في مدينة غرناطة، ويشتمل على عدد من المرافق أهمها صالة السفراء، انظر: سالم، السيد عبدالعزيز: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، دط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1985م، ص204-205.
- (2) وادي أش: مدينة أندلسية تقع جنوبي مدينة غرناطة، تحيط بها المياه والأنهار المتدفقة من جبل شلير الموجود شرقيها، انظر: الحميري، المصدر السابق، ص604.
- (3) المقري، نفح، ج4، ص512.
- (4) المصدر نفسه، ص514-515.
- (5) حي البيازين، أو ريبض البيازين: أحد أهم الأحياء الخارجية لمدينة غرناطة، ويشرف على وادي حدره مقابل قصور الحمراء، انظر: سالم، المرجع السابق، ص140.
- (6) فرحات، المرجع السابق، ص51؛ دنون، المرجع السابق، ص49.

وبدأت القوات القشتالية باجتياح الأراضي الغرناطية، إلا أن عملية الاجتياح هذه والتي امتدت سنة كاملة لم تحقق النتائج المرجوة، وأبعد من ذلك فقد أرهقت الخزينة الملكية الإسبانية، مما دعا هنري الرابع إلى جباية المزيد من الضرائب؛ بهدف سد العجز وتمويل حملاته⁽¹⁾، ولذلك مال إلى اتباع سياسة متدرجة لتحقيق الهدف، وانتقاء الضربات بعناية مع تجنب المواجهة المباشرة مع الغرناطيين؛ وإطلاق يد القائد العسكري خوان دي غوزمان Juan de Guzman (1445-1468م) في عمليات التخريب والإغارة على المواقع الإسلامية الواقعة في ريف غرناطة وسهول مالقة Malaga⁽²⁾، إلا أن الإنجاز الأكبر في تلك المرحلة قد تحقق بالسيطرة على جبل طارق Gibraltar وبلدة أرشذونة Archidona⁽³⁾ والعديد من المناطق المحيطة بهما سنة 1462م/866هـ، مما أدى إلى قطع طرق الإمدادات المغربية إلى الأندلس، وأصبح الغرناطيون وحدهم في مواجهة الإسبان⁽⁴⁾، فأبدى البابا بيو الثاني Pio II (1458-1464م) سعادته بهذا الإنجاز، ووعد بمزيد من الدعم البابوي⁽⁵⁾.

واستمر الملك القشتالي في غزو الأراضي الغرناطية حتى أجبر الملك الغرناطي سعد بن إسماعيل النصري على عقد اتفاق مذل مع الإسبان التزم بموجبه بدفع إثني عشر ألف دوقية⁽⁶⁾، دوقية⁽⁶⁾، وإطلاق سراح ستمائة أسير إسباني، وبعد موت الملك سعد جدد خليفته أبو الحسن علي بن سعد (1464-1482م/868-887هـ) مدته الزمنية لخمس سنوات إضافية، وما لبث التوتر أن عاد بين الطرفين من جديد عندما شعر أبو الحسن بخيبت النوايا الإسبانية ضد مملكته، فنبذ طاعة الإسبان بامتناعه عن دفع الأتاوة السنوية المعهودة⁽⁷⁾، وقال لرسول الملك الأراغوني فرناندو: "قل لمولاك إن سلاطين غرناطة الذين اعتادوا أداء الأتاوات قد ماتوا، وإن دار الضرب بغرناطة لا تطبع ذهباً ولا فضة، وإنما سيوفاً ورمحاً"، فغضب الملك

(1) رضوان، نبيل عبد الحي: الغزوات الاستعمارية الإسبانية والبرتغالية في الشمال الأفريقي (1415-1511م)، مجلة المؤرخ العربي الصادرة عن اتحاد المؤرخين العرب القاهرة، ع6، مج1، آذار 1998م، ص553.

(2) O'Callaghan, Op. Cit., p. 568.

(3) أرشذونة: من مدن مالقة، وتبعد عنها ما يقرب من ثمانية وعشرين ميلاً، انظر: الحميري، المصدر السابق، ص25.

(4) المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد(ت. 1631م/1040هـ): أزهار الرياض في أخبار عياض، 5 أجزاء، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي، (د.ط)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1939م، ج1، ص66.

(5) Housley, Op. Cit, p. 294.

(6) الدوقية أو الدوكه ducado: عملة إيطالية ذهبية تزن 3 غرام و 532 سنتيغرام، انظر: الوزان، الحسن بن محمد الفاسي(1483-1550م/888-957هـ): وصف إفريقيا، جزءان، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت-الرباط، 1983م، ج1، المترجمان، ص23.

(7) Wilberforce, Archibald: Spain and Her Colonies, P.F.Collier, New York, 1900, pp. 66-67.

فرناندو، وأقسم على مواصلة الحرب ضد مملكة غرناطة حتى انتزاعها من أيدي الأندلسيين⁽¹⁾. وحتى يضمن الإسبان نجاعة حملاتهم العسكرية المتواصلة، ومنع أية نجات محتملة من المغرب، فقد أرسلوا سفراءهم إلى السلطان عبدالحق بن أبي سعيد عثمان (1420-1465م/823-869هـ) آخر سلاطين بني مرين، وطلبوا منه ترك غرناطة وشأنها، فوعدهم بالالتزام⁽²⁾.

ولعل من أهم محطات الصراع الإسباني الأندلسي تلك المرحلة التي أعقبت تحقيق الوحدة الإسبانية سنة 1479م، حيث بدأ الملكان فرناندو وإيزابيل سوياً بالعمل على إكمال سياسة الإسترداد الصليبية، في ظل أجواء دينية مفعمة بالحماس والدعم البابوي السخي، مما أعاد إلى الأذهان تلك الأجواء التي رافقت الحروب الصليبية، والتي شكلت سياسة إسبانيا تجاه المسلمين امتداداً لها⁽³⁾.

فبعد قيام الوحدة، نشط الملكان في إنشاء دواوين التحقيق *Inquisicion espanola* أو محاكم التفتيش، حيث أنشئت أول محكمة في إشبيلية سنة 1480م، وذلك بدعم وتأييد من المؤسسة البابوية، وفي سنة 1482م بارك البابا سيستو الرابع بإنشاء محكمة أخرى في قرطبة، ومنح الإسبان تفويضاً بممارسة الوسائل كلها ضد أعداء الكاثوليكية وفق ما درجت عليه الصيغ البابوية، ثم توالى إنشاء مثل هذه المحاكم في شقوبية Segovia⁽⁴⁾ والعديد من المدن الإسبانية، الإسبانية، حتى شمل نشاطها معظم أنحاء إسبانيا، وعينت هذه المحاكم بالدرجة الأولى بملاحقة الأندلسيين وتعذيبهم؛ لإكراههم على التنصّر بعد السيطرة على مدنهم، وكذلك ملاحقة كل من هو غير كاثوليكي⁽⁵⁾.

(1) العبادي، أحمد مختار. سالم، السيد عبدالعزيز: تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط، جزءان، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، دت، ج2، ص364.

(2) عنان، المرجع السابق، ص158.

(3) Braudel, Fernand: *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II*, 2 vols., 2nd. ed., Translated by S. Rynolds, Collins, London, 1972, I, p. 670.

(4) شقوبية: ليست بمدينة، وإنما هي قرى متجاورة، كثيفة السكان، تبعد عن طليطلة مائة ميل، انظر: الحميري، المصدر السابق، ص350.

(5) رزوق، محمد: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين (16-17)، ط3، إفريقيا الشرق، الرباط، 1998م، ص61-62، ولمزيد من الإطلاع على نشأة محاكم التحقيق (التفتيش) وعملها في إسبانيا، انظر:

LLorente, J. A.: *The History of the Inquisition of Spain*, G. B. Whittaker, London, 1826, pp. 16-84.

وأثمرت جهود فرناندو وإيزابيلا بالسيطرة على مدينة الزهراء Azahara⁽¹⁾ سنة 1481م/886هـ⁽²⁾، فشكّل هذا الإنجاز خطوة أخرى نحو القضاء على الوجود الإسلامي في مملكة غرناطة، ثم ما لبثت الحرب الإسبانية أن استعرت على نحو أعنف سنة 1482م/887هـ، وبقيت مستمرة حتى سقوط مدينة غرناطة سنة 1492م/897هـ، فأطلق المؤرخون عليها حرب السنوات العشر⁽³⁾، التي زج الملكان في أتونها أكثر من اثنين وخمسين ألف جندي، وفتحت البابوية والأثرياء اليهود والأوروبيون وإسبانيا الخزائن فغرفا منها بلا حساب⁽⁴⁾.

وشكّلت قلعة ومدينة الحامة Alhama الواقعة على بعد خمسة فراسخ⁽⁵⁾ جنوب غرب مدينة غرناطة باكورة المدن التي استطاع الإسبان السيطرة عليها في بداية حرب السنوات العشر، وذلك في شباط 1482م/محرم 887هـ، فأزيلت منها جميع المظاهر الإسلامية، وحولت ثلاثة من مساجدها إلى كنائس، وزج إليها الإسبان بعدد كبير من الأساقفة والقساوسة ليقوموا بدورهم في تمسيح المدينة وتنصير أهلها، ثم قامت القوات الإسبانية بعد ذلك بالاغارة على حصن غرناطة، فقطعت الأشجار ونهبت البساتين، وفي الثالث عشر من تموز 1482م/السابع والعشرين من جمادى الأولى 887هـ هاجم الإسبان مدينة لوشة Loja⁽⁶⁾، ولكنهم اضطروا إلى التقهقر والإنسحاب بعد أن واجهوا مقاومة عنيفة من سكان المدينة، وتكبّدوا خسائر فادحة في الأرواح، ثم لاقت القوات الإسبانية المصير ذاته عندما حاولت السيطرة على قرى بلش Velez⁽⁷⁾ في نواحي مالقة في آذار 1483/صفر 888هـ⁽⁸⁾، حيث تمثلت الخسائر الإسبانية بمقتل أربع مائة، كان من بينهم ثلاثون من كبار القادة⁽⁹⁾.

(1) الزهراء: مدينة أندلسية تقع على بعد خمسة أميال إلى الغرب من قرطبة، بناها الخليفة عبدالرحمن الثالث الناصر لدين الله (912-961م/300-350هـ)، انظر: الحميري، المصدر السابق، ص259، ولمزيد من المعلومات حول مدينة الزهراء انظر: سالم، المرجع السابق، ص45-50.

(2) Bernaldez, Andres: Historia de Los Catolicos, 2vols., Liberia de D. Jose M. Zamora, Granada, 1856, I, pp. 113-114.

(3) Housley, Op. Cit., p. 29.

(4) بشتاوي، المرجع السابق، ص14.

(5) الفرسخ: يعادل ما يقرب من أربعة أميال، انظر: هنتس، فالتر: المكابيل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المترى، ترجمة كامل العسلي، ط2، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، (د.ت)، ص94.

(6) لوشة: مدينة تبعد عن غرناطة خمسة وعشرين ميلاً، وزعم أهل الأندلس أن أهل الكهف كانوا فيها، انظر: الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص570، ص803.

(7) بلش أو بليش: مدينة صغيرة تقع إلى الشرق من مالقة، وعلى مقربة منها، انظر: ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص112.

(8) مجهول: نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، ط1، ضبطه وعلق عليه: الفريد البستاني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002م، ص8-11.

(9) Wilberforce, Op. Cit., p.68.

ولكن الإسبان ما لبثوا أن تمكنوا في سنة 1485م/890هـ من السيطرة على مدينة رندا Ronda⁽¹⁾ والعديد من الحصون والقلاع الأخرى، وفي التاسع والعشرين من أيار 1486م/السادس والعشرين من جمادى الأولى 891هـ سقطت مدينة لوشة، ثم بلش وقرها المجاورة في أيار 1487م/جمادى الأولى 892هـ⁽²⁾.

وفي تموز 1487م/شعبان 892هـ هاجم الإسبان مدينة مالقة فدافع أهلها عنها ببسالة، وعلى الرغم من ذلك هزموا وتمكن الإسبان من السيطرة عليها، وفي كانون الأول 1489م/محرم 895هـ استسلمت مدينة بسطة Baza⁽³⁾، ومن الجدير ذكره أن حصار مدينة بسطة والمقاومة الباسلة التي أبداها أهلها قد أرهقت الخزينة الإسبانية، فتولت البابوية جمع الأموال من الضرائب وبيع صكوك الغفران في أوروبا، وتمكنت من جمع ما يقرب من ثمانمائة مليون دينار ذهبي⁽⁴⁾.

بعد سقوط بسطة تبعثها مدينة وادي آش والمرية في السنة ذاتها، وعندما وصل الأمر إلى هذا الحد سارع أبو عبدالله (الزغل) إلى مهادنة الإسبان والتنازل لهم عن جميع الحقوق لقاء مبلغ من المال، وجاز البحر إلى بلاد المغرب سنة 1490م/895هـ⁽⁵⁾.

في خضم الأحداث المذكورة أرسل الملك أبو عبدالله الصغير سفارة برئاسة الفقيه الغرناطي أبي علي بن محمد بن الأزرق إلى بلاط سلطان المماليك في مصر الأشرف قايتباي (1468-1496م/872-901هـ)، بهدف إيجاد بلاد الأندلس، فاكتمت الأخير بإرسال رسائل إلى الملكين فرناندو وإيزابيل وإلى عدد من ملوك أوروبا، ملوّحاً بالانتقام من مسيحيي الشرق إذا لم تتوقف الحرب ضد مسلمي الأندلس، ولكن أحداً لم يكثر بذلك⁽⁶⁾.

بعد أن سيطر الملكان فرناندو وإيزابيل على المدن الغرناطية جميعها، ولم يبق سوى مدينة غرناطة، فأرسل إلى الملك الغرناطي أبي عبدالله من أجل تسليمها، ولكن أعيانها رفضوا ذلك، وحينها حشد الملكان في نيسان 1491م/جمادى الثانية 896هـ خمسين ألف مقاتل، وفرضوا عليها حصاراً شاملاً تمكناً خلاله من احتلال الحصون الأمامية التابعة لها، وعندما طال الحصار أمرا ببناء مدينة جديدة على مقربة منها لتكون معسكراً للجند أطلقا عليها اسم الإيمان المقدس Santa Fe، بهدف تسهيل مهمة السيطرة على المدينة، وبعد حصار إسباني دام ما يقرب من سبعة شهور، تعرضت خلالها المدينة لقصف دائم بالمدفعية، وعمت المجاعة بين

- (1) رندا: بضم النون، من مدن الجنوب الأندلسي، وتقع على نهر يصب في وادي لكة، انظر: الحميري، المصدر السابق، ص 269.
- (2) المقري، نفح، ج 4، ص 517-518.
- (3) بسطة: مدينة أندلسية حسنة الموقع، متوسطة المقدار، لها أسوار حصينة وأسواق وتجارة مزدهرة، وبالقرب منها حصن طشكر، انظر: الإدريسي، المصدر السابق، ج 2، ص 568.
- (4) بشتاوي، المرجع السابق، ص 15.
- (5) المقري، نفح، ج 4، ص 520-524.
- (6) العبادي، سالم، المرجع السابق، ج 2، ص 369.

السكان، وأصيبوا باليأس والقنوط، فاجتمع الملك أبو عبدالله مع القادة العسكريين لتدارس الموقف، واتفقوا على تسليم المدينة⁽¹⁾.

أرسل الملك أبو عبد الله سفراءه إلى الملكين الإيبانيين من أجل التفاوض، والتوقيع على معاهدة التسليم، فتم ذلك في الخامس والعشرين من تشرين الثاني 1491م/الثالث والعشرين من محرم 897هـ⁽²⁾، وفي الثاني من كانون الثاني 1492م/الثاني من ربيع الأول 897هـ تم تسليم مدينة غرناطة، فدخلها الملكان فرناندو وإيزابيل، ورُفعت فوق أسوار ومباني قصور الحمراء الصليبان والأعلام المسيحية الإسبانية، معلنة انتهاء الحكم الإسلامي في الأندلس، بعد أن دام قرابة ثمانية قرون⁽³⁾.

وما أن وصلت أنباء سقوط غرناطة إلى أوروبا حتى دقت أجراس كنائسها ابتهاجاً بهذه المناسبة، خاصة وأن شبه الجزيرة الإيبيرية هي البلاد الوحيدة التي استعادها المسيحيون كاملة بعد انتشار الإسلام فيها، وتحقق للبابوية هناك ما لم تحققه الحروب الصليبية التي راح ضحيتها أكثر من مليون مسيحي⁽⁴⁾.

وتقديرًا منه لدور الملكان فرناندو وإيزابيل في محاربة المسلمين والانتصار عليهم، وتشجيعاً لهما على الاستمرار في عمليات السيطرة والغزو خارج شبه الجزيرة الإيبيرية، فقد أصدر البابا اليساندرو السادس Alessandro VI (1492-1503م) سنة 1493م مرسومًا بابويًا بمنحهما لقب "الملكين الكاثوليكين" Reyes Catolicos⁽⁵⁾.

نتائج البحث

1. ثمة علاقة مباشرة ما بين سقوط مدينة القسطنطينية، وما تمخض عنه من نتائج سلبية على المؤسسة البابوية والعالم المسيحي الأوروبي الغربي، وما بين الجهود البابوية والإسبانية الهادفة إلى إنهاء الوجود الإسلامي من بلاد الأندلس.

(1) دنون، المرجع السابق، ص54؛ بشتاوي، المرجع السابق، ص121.
 (2) للإطلاع على بنود معاهدة التسليم أنظر: حتاملة: الأندلس، ص636-668؛ مرثديس، أرينال: الموريسكيون الأندلسيون، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، ط3، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، 2003م، ص31-38؛ دنون، المرجع السابق، ص53-69.

(3) Zurita, Op. Cit., Lib. XX: Cap. XCII.

ولمزيد من التفاصيل حول مراحل السيطرة الإسبانية على مدينة غرناطة، انظر:

Bernaldez, Op. Cit., I, pp. 214-230.

Irving, Washington: The Works of Washington Irving, G.P. Putnam, New York, 1852, XIV, pp. 481-527.

(4) بشتاوي، المرجع السابق، ص99.

(5) Davila, Gil Gonzalez (1578-1658): Teatro Eclesiastico de las Iglesias Metropolitanas, y Catedrales de los Reynos de las Dos Castillas, P. de Horna y Villanueva, Madrid, 1647, II, p. 279.

2. اتّضح من الأحداث موضوع البحث مدى الدعم البابوي السخيّ للممالك المسيحية الإسبانية، وبخاصة بعد سقوط القسطنطينية، ولولاه لما تمكنت من تحقيق أهدافها في انتزاع المدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى، وصولاً إلى العاصمة غرناطة.
3. أبرز البحث بوضوح أهمية الوحدة الداخلية في تحقيق آمال الشعوب وتطلعاتها، كما حصل عندما اتّحدت مملكتنا قشتالة وأراغون، وما تمخض عن هذه الوحدة من صبّ الجهود في بوتقة البرامج الموضوعية لتحقيق الهدف.
4. بيّن البحث خطورة الخلافات الداخلية على ديمومة الاحتفاظ بالحقوق والدول، وفق ما كان عليه واقع الحال لدى سلاطين مملكة غرناطة، كما شكّلت حالة الضعف والتفكك والانحيار السياسي والاقتصادي والثقافي التي عاشتها بلاد المغرب في نهاية القرن الخامس عشر أحد أهم الأسباب التي شجعت الإسبان على مواصلة حربهم ضد الأندلسيين.
5. تتحمل الدولة العثمانية قسطاً كبيراً من المسؤولية عن سقوط مملكة غرناطة، على الرغم من إدراك الباحث لعظم المسؤوليات التي كانت ملقاة على كاهلها، وخطورة التحديات التي كانت تواجهها، وبخاصة من جانب الصوفيّين والبرتغاليّين، فضلاً عن الأخطار القادمة من الجبهة الشمالية الأوروبية.

Sources & References (Arabic & English)

- Al-Abbadi, A. & Salem S. *History of Islamic Marine in the Mediterranean Sea*, 2vols. Mo`ssasat Shabab Algami`a, Alexandria, (-).
- Alfasi, Ali bin Abi Zar`. (d.1340 A.D.\741 H.). *Althakhira Alsaniya fe Tarikh Aldawla Almariniya*, Dar Almansour Littiba`a, Alribat, (1972).
- Anan, M. *Fall of Alandalus and History of Arab Converters*, 4th. ed., Maktabat Alkhanji, Cairo, (1987).
- Awad, M. *the Byzantine Empire*, 1st. ed., Ayn Lildirasat, Cairo, (2007).
- Bishtawi, Adel: *The Martyre Andalusian Nation*, 1st. ed., Almo`ssasa Alarabia lildrasat Walnashr, Beirut, (2000).
- Dar, M. Ahmad: *Morocco's External Relations in the era of Saadia Family*, PhD Thesis, Department of History, Faculty of Arts, University of Alexandria, (1996).

- Farahat, Y. *Granada under Bani Alahmar*, 1st. ed., Dar aljil, Beirut, (1993).
- Halim, I. Bik. *Altohfa Alhalimia fi Tateekh Aldawla Alalia*, 1st. ed., Mataba` t Diwan Alawqaf, Cairo, (1905).
- Alhamawi, Shehab Eddin Yaqut bin Abdullah. (d.122A.D\626H.). *Mu`jam Alboldan*, 8vols. 1st. ed., Dar ihia` Ettorath, Beirut, (1997).
- Hatamlah, M. Abdo. (1966). *Iberia before Aabs- Muslems*, 1st. ed., Almaktaba Alwataniya, Amman,
- *Alandalus, History, (2000). Civilization and Tragedy*, 1st. ed., matabi` Aldostoor Altijaria, Amman.
- Alhimyari, Muhammad bin Abdulmu`m. (d.1495A.D\900H.). *Alrawd Almi`tar fe Khabar Alaqtar*, Review: Ihsan Abbas, Maktabat Lubnan, Beirut, (1984).
- Hintes, F.: *Islamic Pecks weights and their equivalentents in the metric system*, 2nd. ed., Manshoorat aljam`a Alordonia, Amman, (-).
- Alidrisi, Muhammad bin Muhammad. (d.1164A.D\560H.):*Nozhat Almoshtaq fe Ekhteraq Elafaq*, 2vols., 1st. ed., Alam Elqotob, Beirut, (1989).
- Ibn Khaldun, Abdulrahman. (d.1406A.D\808H.). *Tarikh Ibn Khaldun*, 7vols. Review: Khalil Shehada & Suhail Zakkar, Dar Alfikr, Beirut, (2000).
- Ibn Al-khateeb, Lisan Aldin Muhammad (d.1374A.D\776H.):
- *Allamha Albadriya fe Aldawla Alnasriya*, 2nd. ed., Dar Alafaq Aljadida, Beirut, (1978).
- *Alihata fe Akhbar Ghirnata*. 4vols. Review: Muhammad Abdullah Anan, 1st. ed., Maktaba Alkhanji, Cairo, (1974).
- Khawand, M.: *Historical Geographical Encyclopedia*, 12vols. Dar rowad Alnahda, Beirut, (-).
- Majhul: *Nubthat Ala`sr fe Akhbar Moluk Bani Nasr*, Review: Alfarid Albostani, Maktabat Althaqafa Aldiniya, Cairo, (2002).

- Almaqary, Ahmad bin Muhammad. (d.1631A.D.\1040 H.): *Azhar Alriyad fe Akhbar Iyad*, 5vols., Review: M. Saqqa & I. Alabiari & A. Salabi, Mataba` t Lajnat Alta`lif, Cairo, (1939).
- *Nafh Alyeeb men Ghosn Alandalus Alrateeb*, 8vols. Review: Ihsan Abbas, Dar Sader, Beirut, (1988).
- Almarrakishi, Abdulwahid. (d.1249 A.D.\647H.): *Almo`jeb fe Talkhis Akhbar Almaghreb*, Review: M. Alaryan & M. Alalami, Almaktaba Altijariya Alkubra, Cairo, (1949).
- Mercedes, A. (2003). *Moriscos of Alandalus*, Trans. and Review: Jamal Abdulrahman, 3rd. ed., Almajles Ala`la Lilthaqafa, Cairo.
- Metry, T. (1994). *Islamic Cristian Relationships*, 1st. ed., Markaz Aldirasat Alistatijia, Beirut.
- Al- Muhami, M. (1981). *History of Ottoman State*, Review: Ihsan Haqi, 1st. ed. Dar Alnafais, Beirut.
- Al- Omari, A. (1997). *Islamic Fotouh Through the Ages*, 1st. ed., Markaz Aldirasat wa Ali`lam, Riyadh.
- Omran, M. (2000). *History of The Crusades (1095-1291)*, Dar Almarifa Aljami`yyaa Alexandria.
- Ibn Sa`id Almaghribi, Ali bin Musa (d.1286A.D.\685H.): *Almughreb fe Hula Almaghreb*, 2vols., Review: Shawqi Daif, 4th. ed., Dar Alma`aref, Cairo, (1964).
- Alnasiri, Ahmad bin Khaled (d.1897A.D.\1315H.): *Alesteqsa Lakhbar Almaghreb Alaqsa*, 9vols., Review: J. Alnasiri & M. Alnasiri, Casablanca, (1997).
- Radwan, N. (1988). *Colonial Spanish and Portuguese Invasions in North African 1415-1511*, Majallat Almoarrikh Alarabi, No.6, Vol.1, March.
- Rashidi, Salem: *Muhammad the Conqueror*, 3rd. ed., Maktabat Alrashad, Jedda, (-).
- Razzoq, M. (1998). *Andalusians and their Migrations to Morocco through the Centuries 16-17*, 3rd. ed., Ifriqia Alsharq, Alribat.

- Abu Rumaila, H. (1984). *Relations between Christian kingdoms and Muslim countries in Andalusia*, 1st. ed., Dar Al-Furqan, Amman.
- Salem, Alsaid. (1985). *Islamic History and Civilization in Alandalus*, Moassast Shabab Aljame`a, Alexandria.
- Salim, M. (1979). *Political life and civilization aspects in the state of Bani Marin at Morocco*, Ph.D., Department of History, Faculty of Arts, Cairo University.
- Al- shatat, A. (2001). *The end of the Arab presence in Alandalus*, Dar Quba, Cairo.
- Al-Shaikh, M. (1994). *The history of the Byzantine Empire*, Dar Almarifa Aljami`yyaa, Alexandria.
- Sisalem, I. (1984). *Missed Balearic Islands (Islamic history of the Balearic Islands)*, Dar Alilm Lilmalayin, Beirut.
- Taqoosh. M. (2007). *Ottoman History from State Establishment to the Coup against the Caliphate*, 2nd. ed., Dar Alnafa`s, Beirut.
- Thannon, Abdulhakim. (1988). *Prospects of Granada*, 1st. ed., Dar Alma`rifa, Damascas.
- Alwazzan, Alhasan bin Muhammad (d.1550A.D.\957H.). *Wasf Ifriqia*, 2vols., Translated from French: M. Hajji & M. Alakhdar, 2ed., Aljami`ya Almaghribiya Lita`lif- Dar Algharb Alislami, Beirut-Alribat, (1983).
- Yaghi, I. (1966). *Ottoman Empire in Modern Islamic History*, 1st. ed., Maktabat Alibekan, Riyadh.
- Al-Yusuf, A. (1967). *European middle Ages*, Almaktaba Alasriya, Sidon-Bierut.
- Alzarkashi, Muhammad bin Ibrahim(d. after 1488A.D\894H.). *Tarikh Aldawlatain Almowahiddiah wa Alhafsiya*, Review: Muhammad madoor, 2nd. ed. Almaktaba Alatika, Tunis, (1966).
- Acero, Beatriz Alonso: (1997). *Oran y Mazalquivir en la Politica Norteafricana de Espana 1589-1639*, Tesis Doctoral, Departamento

- de la Historia Moderna, Facultad de Geografía e Historia, Universidad Complutense de Madrid.
- Bernaldez, Andres. (1450-1513). (1856). *Historia de Los Catolicos*, 2vols., Liberia de D. Jose M. Zamora, Granada.
 - Boxer, Charles R. (1978). *The Church Militant and Iberian Expansion 1440-1770*, J. Hopkins Univesity, Baltimore – London.
 - Braudel, Fernand. (1972). *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II*, 2 vols., 2nd. ed., Translated by S. Rynolds, Collins, London,
 - Crowley, Roger. 1453. *The holy war for Constantinople, and the clash of Islam and the west*, Hyperion, New York, (2005).
 - Davenport, F. & Paullin, C. (2004). *European Treaties Bearing on the History*, Lawbook E., New-Jersey,
 - Davila, Gil Gonzalez (1578-1658). *Teatro Eclesiastico de las Iglesias Metropolitanas, y Catedrales de los Reynos de las Dos Castillas*, P. de Horna y Villanueva, Madrid, (1647).
 - Elliott, J. (1963). *Imperial Spain 1469-1716*, 1st. ed. Penguin Group, London,
 - Ferreras, Juan de (1652-1735). *Histoire Generale d' Espagne*, Traduite par N.-G. d'Hermilly, Zacharie Chtelain, Amsterdam, (1751).
 - Fredet, Peter. (1801-1856). *Modern History from the Coming Christ and the Change of the Roman Republic into an Empire to the Year of Our Lord 1850*, 10th. ed., Charles Dolman Com., London, (1853).
 - Housley, Norman. (1992). *The Later Crusades 1274-1580, From Lyons to Alcazar*, 1st. ed., Oxford Univesity Press, New York,
 - Irving, Washington. (1852). *The Works of Washington Irving*, G.P. Putnam, New York.
 - LLorente, J. A. (1826). *The History of the Inquisition of Spain*, G. B. Whittaker, London.

- Miralles, Alvaro F. de Cordova. (2005). *Alejandro VI y Los Reyes Catolicos, Relaciones Politico Eclesiasticas (1492-1503)*, Thesis Doctoratum in Theologia, Facultas Theologiae, Pontificia Univirsitas Sanctae Crucis, Romae.
- Nocol, Donald M. (1992). *The Immortal Emperor, The Life and Legend of Constantine Palaiologos, Last Emperor of the Romans*, Cambridge University Press,
- Norwich, J. Julius: (1997). *A Short history of Byzantium*, Vintage Books, New York.
- O'Callaghan, J. F. (1975). *A History of Medieval Spain*, Cornell University Press, Ithaca – London.
- Prescott, William H. (1892). *History of the Reign of Ferdinand and Isabella the Catholic*, George Routledge, London.
- Pulgar, Hernando del (1436-1493): *Cronica de los Senores Reyes Catolicos, Don Fernando y Dona Isabel de Castilla y de Aragon*, Imprenta de Benito Montfort, Valencia. (1780).
- Runciman, Steven. (1969). *The fall of Constantinople 1453*, Cambridge University Press,
- Strayer J. & Munro D. (1959). *The Middle Ages*, 4th. ed., Appelton-Century-Crofts, New York,
- Taaffe, John. (d. 1641): *The History of the Holy Military Sovereign Order of St. John of Jerusalem*, 4 Vols., Hope Com., London, (1852).
- Tagore, S. Mohun. (1884). *The orders of knighthood*, British and foreign, 1st. ed., Catholic Orphan Press, Calcutta,
- Wilberforce, Archibald. (1900). *Spain and Her Colonies*, P.F.Collier, New York,
- Zurita, Jeronimo. (1512-1580): *Anales de la Corona de Aragon*, ed. de A. C. Lopez, Zaragoza, (1967-1977).